المشهد
العدد 342 - السنة الرابعة عشر ـ 6 أكتوبر 2025 - 14 ربيع الثانى 1447هـ

قالت العرب

الأصدقاء ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا نستغني عنه .. و طبقة كالدواء لا نحتاج إليه إلا أحيانا .. و طبقة كالداء لا نحتاج إليه أبدا ..“

طه حسين

حرب غزة بعد مرور عامين ..

ماذا تغير وكيف سيكون مستقبل الصراع مع إسرائيل؟

بات واضحًا أن هجوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، الذى شنته حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وفصائل المقاومة الفلسطينية الأخرى المتحالفة معها، انطلاقا من قطاع غزة، يُمثل علامة فارقة ونقطة تحول فى الصراع الرئيسى فى منطقة الشرق الأوسط والممتد منذ أكثر من قرن. فقد أطلق هذا الهجوم شرارة حرب هى الأطول والأوسع نطاقًا فى تاريخ الحروب الإسرائيلية- العربية، منذ حرب عام ١٩٤٨. والنتائج المترتبة على هذه الحرب الأخيرة قد تصبح نقطة تحول فى مسار هذا الصراع، مثلها مثل حرب عامى ١٩٤٨ و١٩٦٧، وما ترتب عليهما من نتائج رسمت ملامح الصراع. وبرز فى أعقاب حرب ١٩٦٧، مساران لتعديل نتائجها. فهناك أولًا المسار العسكري، الذى بدأ بحرب الاستنزاف على الجبهة المصرية التى استمرت ثلاث سنوات (١٩٦٧-١٩٧٠)، وهو المسار الذى بلغ ذروته فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ على الجبهتين المصرية والسورية. وبرز المسار الثانى التفاوضى والذى بدأته مصر بمبادرة السلام التى طرحها الرئيس الراحل أنور السادات فى عام ١٩٧٧، وانتهى بتوقيع اتفاقيتين لإطار السلام فى الشرق الأوسط تم توقيعهما بين مصر وإسرائيل والولايات المتحدة فى كامب ديفيد عام ١٩٧٨، ثم معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل فى عام ١٩٧٩. واكتسب هذا المسار التفاوضى زخمًا بعد انعقاد مؤتمر مدريد للسلام فى الشرق الأوسط فى أكتوبر ١٩٩١، فى أعقاب حرب تحرير الكويت أوائل ذلك العام، وهو المسار الذى فتح طريقا للمفاوضات بين إسرائيل وكل من الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، أدت إلى توقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتوقيع معاهدة سلام أنهت رسميا حالة الحرب بين إسرائيل والأردن، وتخلى الأردن بموجب هذه المعاهدة عن مطالبته بالضفة الغربية لصالح حل سلمى بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

أدت هذه الاتفاقيات إلى جانب قرار إسرائيل الانسحاب من جانب واحد من جنوب لبنان فى عام ٢٠٠٠، ثم من قطاع غزة فى عام ٢٠٠٥، إلى تعزيز النتائج التى ترتبت على المسار التفاوضي، خصوصًا أنه أدى، من منظور القانون الدولي، إلى ترسيم وتثبيت للحدود بين إسرائيل وكل من مصر والأردن ولبنان، وقد يؤدى الاعتراف بالدولة الفلسطينية إلى تثبيت حل الدولتين فى مواجهة محاولات إسرائيل والولايات المتحدة فرض حل الدولة الإسرائيلية الواحدة، الذى يقوم على ضم الأراضى الفلسطينية المحتلة وفرض السيادة الإسرائيلية عليها. وأدى تعثر «عملية أوسلو» وعدم إبرام اتفاق سلام نهائى بين إسرائيل والفلسطينيين، إلى تكرار المواجهات العسكرية بين إسرائيل وفصائل المقاومة الفلسطينية المسلحة والفصائل داعمة لها، والتى امتدت أحيانًا إلى الجبهتين اللبنانية والسورية وشملت اليمن وإيران، لكن دون الوصول إلى حرب شاملة، باستثناء الحرب مع إيران التى استمرت ١٢ يومًا، رغم أن إيران ليست من دول الجوار الحدودية. وتم احتواء هذه المواجهات العسكرية السابقة التى تمحورت أساسًا حول قطاع غزة، باستثناء حرب عام ٢٠٠٦، بين إسرائيل وحزب الله باتفاقيات تهدئة وهدنة من خلال مفاوضات غير مباشرة بين إسرائيل وحماس عبر وسطاء إقليميين ودوليين.

وأعلنت إسرائيل موافقتها على الخطة التى أعلنها الرئيس الأمريكى دونالد ترامب يوم ٢٩ سبتمبر، لإنهاء الحرب فى غزة، وورود تقارير عن بدء تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة، بعدما أبدت حماس والفصائل الفلسطينية الأخرى رغبتها فى التوصل إلى اتفاق سلام ينهى الحرب، والتزامهم بتنفيذ البند الثالث، الذى يقضى بإعادة جميع الرهائن الإسرائيليين المتبقين لديها، أحياء وأمواتًا، مقابل انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خط متفق عليه وتعليق جميع العمليات العسكرية والإفراج عن سجناء فلسطينيين وتسليم جثامين فلسطينيين قتلوا أثناء الحرب، حسبما نص البندان الثالث والرابع من الاتفاق. إلا أن قصف غزة استمر، ولا يعرف أحد ما إذا كانت ستنتهى بالفعل، فى ضوء استمرار العمليات العسكرية الإسرائيلية، رغم مطالبة الرئيس ترامب بوقف القصف فورًا، كى يتسنى إخراج الرهائن بأمان وسرعة، مشيرًا إلى خطورة التسليم فى ظل الوضع الراهن فى القطاع الذى وصفه بأنه خطير جدًا. ولا يعرف أحد كيف ستنتهي، هذه الحرب فى ضوء إصرار حماس والفصائل الفلسطينية الأخرى على إرجاء «مناقشة مستقبل القطاع لحين طرح القضية من خلال إطار وطنى فلسطينى جامع ستكون حماس من ضمنه وستسهم فيه»، الأمر الذى يُشير بوضوح إلى أن لديها تحفظات على باقى بنود الخطة التى جرى تقليصها إلى ٢٠ بندًا. وفى ضوء الفجوات التى لا تزال قائمة بين تصور حماس وحلفائها وبين التصورين الإسرائيلى والأمريكي. هناك تقييمات مختلفة للخطة التى وصفتها تقارير إعلامية دولية بأنها «طموحة للغاية»، بشأن تنفيذ بقية البنود، الأمر الذى يعنى أننا سنكون فى قطاع غزة فى حالة أقرب إلى حالة الوضع على الجبهة اللبنانية الآن، حيث تتمتع القوات الإسرائيلية بحرية تحرك كاملة فى التعامل مع ما تراه تهديدا من قبل حزب الله وتستهدف مقاتليه ومواقعه وتقييد كامل لأى رد من الحزب على الهجمات الإسرائيلية. وعلى الرغم من تصريح ترامب بأن الخطة تستهدف إقامة سلام دائم فى الشرق الأوسط، إلا أنها لم تتضمن أى بنود تتعلق بالضفة الغربية المحتلة.

ورغم أن الخطة تضمنت بنودًا إرشادية على قدر كبير من الأهمية، مثل تأكيد عدم إجبار سكان غزة على التهجير (البند ١٢)، وعدم إعادة احتلال قطاع غزة أو ضمه (البند ١٦)، وضمان استمرار دخول المساعدات إلى القطاع وتوزيعها، من خلال الأمم المتحدة ووكالاتها، والهلال الأحمر، بالإضافة إلى المؤسسات الدولية الأخرى غير المرتبطة بأى شكل من الأشكال بأى من الطرفين، واستمرار الآلية المطبقة بموجب اتفاقية ١٩ يناير ٢٠٢٥، بخصوص فتح معبر رفح فى كلا الاتجاهين، إلا أن البنود الأخرى والتصورات التى اقترحتها بخصوص مستقبل القطاع تمنح إسرائيل سيطرة فعلية أمنية وعسكرية على القطاع حتى بعد الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من القطاع، وفق البنود ١٣ و١٤ و١٥ من الخطة، التى تضمن لإسرائيل رقابة قوية ودولية على القطاع وتفرض قيودًا شديدة على الفلسطينيين، على نحو يعكس موازين القوة التى أسفرت عنها الحرب، وعلى الرغم من إقرارها بحق الفلسطينيين فى أن تكون لهم دولة مستقلة، إلا أنها لم تقدم التزامًا واضحًا بحل الدولتين أو أى جداول زمنية أو أى آليات محددة.

حدود استخدام القوة بعد الحرب

مثلت حرب غزة نقطة تحول تاريخية فى مسار هذا الصراع، فالنتائج التى أسفرت عنها هذه الحرب وطريقة حلها، ستحكم شكل الصراع ومساره لسنوات، وربما لعقود مقبلة، وسيكون لها تأثيرات بعيدة المدى على المستويين الداخلى والإقليمى تمتد إلى المستوى الدولي، إذ أكدت هذه الحرب البعد العالمى للقضية الفلسطينية على النحو الذى كشفته خطوة الاعتراف بالدولة الفلسطينية فى الأمم المتحدة الشهر الماضي، ويكشفه تضامن حركة المجتمع المدنى العالمية المتزايد مع الفلسطينيين وحقوقهم، والانقسامات الحادة فى الرأى العام حول سياسات الحكومة الإسرائيلية، التى تعد الحكومة الأكثر تطرفًا فى تاريخ دولة إسرائيل القصير نسبيًا (٧٧ عامًا)، والتى شملت جماعات يهودية فى العالم، على النحو الذى قد يضعف تهمة العداء للسامية التى لطالما وجهتها إسرائيل لأى انتقادات لسياسات حكوماتها.

لقد كشفت هذه الحرب مدى هشاشة التحالفات الأمريكية الأمنية والعسكرية والاستراتيجية مع الدول العربية ومع تركيا، إذ واجهت هذه التحالفات اختبارًا عمليًا بالهجوم الإسرائيلى على العاصمة القطرية الدوحة الذى استهدف قيادات من حركة حماس، وهو الهجوم الذى كشف المدى الذى يمكن أن تصله السياسات الإسرائيلية، الأمر الذى أثار مخاوف حلفاء آخرين لواشنطن فى منطقة الخليج وخارجها. كذلك كشفت الحرب عدم فاعلية الترتيبات الإقليمية الرسمية، من خلال أطر مثل جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامى على المستويين الإقليمى والدولي، والترتيبات والتحالفات غير الرسمية من خلال ما يعرف بمحور المقاومة، الذى شكلته وترعاه إيران، والمؤلف أساسًا من جماعات وفصائل شيعية موالية لطهران، إلى جانب الفصائل الفلسطينية السُنيّة، وأثار هذا التشكيل مخاوف لدى دول المنطقة وخارجها وشكوكًا فى الغرض الرئيسى فى صلة هذا التحالف بالتصورات الإيرانية للمنطقة. وكان للأمرين معاً تأثير على ميزان القوة بين إسرائيل والفلسطينيين، إذ أظهرت الحرب الأخيرة اختلال هذا الميزان بشدة لصالح إسرائيل، وقد زادت سلسلة من التطورات الإقليمية والدولية من اختلاله، بالرغم مما قد يبدو من جوانب ضعف بنائية وسياقية لدى إسرائيل. والواضح من مجريات الأمور أن الوضع الراهن يتطلب من الطرف الفلسطينى والأطراف العربية والدولية الداعمة اتباع ما يعرف باستراتيجيات التمايز التى توازن بين نقاط الهشاشة والضعف، مع الأخذ فى الاعتبار نقاط القوة التى تراكمت لصالح القضية الفلسطينية قبل هذه الحرب وأثناءها وبعدها، وحسابها بدقة، والانتباه إلى المتغيرات فى البيئات الثلاثة للصراع الداخلية والإقليمية والدولية، مع التركيز على الجوانب الأخلاقية والقانونية وعدالة القضية الفلسطينية والسعى لتطوير حركة التضامن العالمية لحصار السلوك العدوانى للحكومة الإسرائيلية الحالية ولأى حكومة قد تتشكل فى المستقبل. صحيح، أن هناك عوامل ضعف بنائية لدى إسرائيل كشفها هجوم السابع من أكتوبر، لكن لا ينبغى فى الوقت نفسه التقليل من قدرة إسرائيل على معالجة هذه العوامل وتعزيز التماسك الداخلى على نحو لا يتيح للطرف الفلسطينى استغلال التناقضات الداخلية بنفس القدر الذى تفعله إسرائيل فيما يخص التناقضات الداخلية على الساحة الفلسطينية وفى البلدان العربية الأخرى وعلى المستوى الإقليمي.

والسؤال المطروح على المستوى الفلسطينى والعربي، وربما الدولي، هو كيفية تقييد الحرية التى تتمتع بها إسرائيل بدعم من الولايات المتحدة، فى شن الحرب ضد أى طرف فى المنطقة ترى أنه يشكل تهديدًا لأمنها، وهو سؤال تزداد أهميته مع صعود تيارات اليمين القومى والدينى الصهيونية وتزايد نفوذها السياسي، ذلك أن العقيدة المعلنة لكثير من المنظرين والزعماء فى هذا التيار تقر بأن إسرائيل ليست فى حاجة لأى مبرر لمحاربة الفلسطينيين وطردهم وإقامة إسرائيل الكبرى، وإعادة بناء الهيكل فى القدس. لقد دفع سلوك إسرائيل العدوانى ضد الفلسطينيين فى غزة وفى الضفة الغربية، والتمادى فى استخدام القوة المفرطة وغير المتناسبة إلى حد يصل إلى شن حرب إبادة تنتهك كل المواثيق والأعراف الدولية، العديد من الدول الأوروبية إلى اتخاذ قرارات بعدم تصدير أى أسلحة لإسرائيل، وأعلنت بعض الحكومات الأوروبية أنها ستقوم باعتقال أى إسرائيليين مطلوبين للمثول أمام المحكمة الجنائية للاشتباه فى ارتكابهم جرائم حرب، وعلى الأطراف العربية وإسرائيل التفكير فى كيفية تطوير هذا الموقف لتقييد قدرة إسرائيل على شن حروب عدوانية ضد الفلسطينيين أو ضد أى دول عربية أخرى، خصوصًا إذا كان اختلال ميزان القوة العسكرية لا يوفر أى ردع لها. قد تكون إيران التى استطاعت تطوير قدرات عسكرية تمكنها من ردع العدوان الإسرائيلى عليها، وهو ما حققته مصر إلى حد ما من خلال الأدوات الدبلوماسية وأيضًا من خلال تطوير القوات العسكرية وتحديثها، وهو ما تشترطه السعودية مقابل توقيع اتفاق مع إسرائيل. وتضمنت بعض بنود خطة ترامب لإنهاء الحرب فى غزة، وكذلك فى الرد على الهجوم على قطر، بعض المؤشرات لهذا التوجه فى المستقبل لكنها لا تتناسب بأى حال مع حجم التحديات المصاحبة لصعود التيارات المتطرفة.

المعادلات الحاكمة للصراع

قد يكون من المفيد الوقوف على التغيرات التى طرأت على المعادلات الحاكمة للصراع وتأثير هذه التغيرات على المسار المستقبلى للصراع. المعادلة الأساسية الحاكمة مرتبطة بالتصورات الجذرية المرتبطة بجوهر هذا الصراع والمستمدة من تصورات دينية عامة تخضع لتفسيرات متباينة من حيث تشددها، وتضفى على هذا الصراع طابعًا دينيًا بين مطلقات إيمانية وغيبية، تتمحور حول تصورات للجماعات المختلفة عن تفسيرات دينية للتاريخ وللحوادث ونبوءات أخروية ترسم ملامح محددة للمستقبل. هذه التصورات لم تؤثر على إمكانية التعايش بين اليهود وأتباع الديانات الأخرى والاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها، بغض النظر عن معتقداتهم الخاصة. فالمشكلة ليست فى المعتقدات الإيمانية فى حد ذاتها وإنما فى تفعيلها فى الواقع من خلال توجهات أيديولوجية وسياسية من خلال تفسيرات متشددة للنصوص الدينية والضغط من أجل ترجمتها لسياسات عامة. والمشكلة الثانية فى حالة الصراع الإسرائيلي- الفلسطينى إنما تتمثل فى تسليط الضوء، لاسيما فى المجتمعات الغربية وفى العالم على التطرف الإسلامى والتجاهل التام لتأثير التطرف اليهودي، ربما كان لهذا الأمر صلة بطريقة التعبير عن التوجهات الدينية.

المشكلة الأساسية لهذه التفسيرات الدينية، سواء للصراع الإسرائيلي- الفلسطينى أو لأى صراعات أخرى، أنها تختزل الأسباب والعوامل الأخرى للقضية أو المشكلة على نحو يجعل من الصعب تفكيكها وحلها، وإذا أضفنا لهذه التفسيرات الدينية المتشددة السرديات الأيديولوجية للتاريخ العام وللتاريخ الخاص للشعوب والمجتمعات، يصبح الصراع صراعًا أبديًا وغير قابل للحل إلا باختفاء أحد طرفيه، أى يصبح صراعًا على الوجود لا الحدود. وبغض النظر عن إمكانية تصفية وجود أى من طرفى الصراع، والتى نجد لها تعبيرات محددة فى المواقف المتطرفة، مثل التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين أو السياسيين الإيرانيين عن ضرورة محو إسرائيل من على الخريطة، أو نجد تعبيرات لها فى تصريحات مسؤولين سياسيين وزعماء دينيين، من التيارات المسيحانية اليهودية أو مسيحية عن ضرورة طرد الفلسطينيين أو قتلهم وإقامة المملكة اليهودية التى تمهد لقدوم المسيح والحكم الألفي، فإن مثل هذه التصريحات لها تأثير عملي فى إدراك الأطراف المتصارعة عن أهداف الطرف الآخر ونواياه، وتدفع فى لغة الخطاب السياسى العام توصيفات لا علاقة لها بالواقع وإنما بإدراكه، على النحو الذى يمكن استكشافه من التصريحات التى أطلقت من الزعماء الإسرائيليين عن أن هجوم السابع من أكتوبر يمثل تهديدًا وجوديًا لإسرائيل، والحديث المتكرر عن أن قيام دولة فلسطينية يشكل تهديدًا وجوديًا. وتعزز بعض التصريحات الصادرة من بعض الزعماء فى محور المقاومة هذا الإدراك، ليس من قبل إسرائيل وحدها وإنما من قبل الرأى العام العالمي. أدى التركيز الشديد على هذا التهديد إلى تجاهل السياسات الفعلية التى تمارسها إسرائيل فى قطاع غزة من خلال حرب الإبادة والتهجير، والتى لم يلتفت الرأى العام العالمى لها إلا بعد شهور من اندلاع الحرب وما صاحبها من فظائع. واستغلت إسرائيل بعض الآراء التى تبرز من خلال منصات إعلامية لها تأثير كبير على الجمهور التى عبر عنها المناصرون لمحور المقاومة الذين يرددون كثيرا أنه لولا الدعم الغربى لإسرائيل بعد هجوم السابع من أكتوبر لمنيت بهزيمة ساحقة تكتب نهاية الدولة والمشروع الصهيوني، والحديث المتكرر لنتنياهو عن أن إسرائيل تخوض حربا من أجل الدفاع عن الحضارة الغربية، إنما كان لحشد الدعم والتصدى للانتقادات الموجهة لسياستها.

يشير البند ١٨ من خطة ترامب إلى «إطلاق عملية حوار بين الأديان» بعد إنهاء الحرب فى غزة، وأن هذا الحوار يقوم على «قيم التسامح والتعايش السلمي»، وهدفه هو السعى «لتغيير عقليات وتصورات الفلسطينيين والإسرائيليين، من خلال التأكيد على منافع السلام»، وتحدث البند ٢٠، من الخطة عن إطلاق حوار «بين إسرائيل والفلسطينيين للاتفاق على أفق سياسى لتعايش سلمى ومزدهر»، إن مثل هذه الأفكار ربما تستند إلى نتائج استطلاعات للرأى سابقة على حرب غزة تشير إلى أن غالبية الإسرائيليين والفلسطينيين يريدون السلام، لكن المشكلة فى وجود مُفسدين أيديولوجيين من كلا الجانبين، وفى الشكوك التى تساور كل طرف فى نوايا الطرف الآخر. ويرى المختصون فى الشؤون الإسرائيلية وفى الصراع العربى الإسرائيلي، أن من شأن معالجة هذا الأمر أن يفتح الطريق للمضى قدمًا فى إيجاد حل سلمي. لكن قبل الاستطراد فى مناقشة هذه النقطة، فإننا فى حاجة ماسة لتحديث استطلاعات الرأى هذه بعد حرب غزة وتجليل نتائجها من أجل الانطلاق من الواقع وحقائقه بدلًا من السير وراء التصورات.

مستقبل الصراع بين اليأس والأمل

هناك عوامل كثيرة جعلت الحرب الراهنة فى غزة مختلفة فى جوانب كثيرة عما سبقها من مواجهات عسكرية بعد الانسحاب الإسرائيلى من القطاع أواخر عام ٢٠٠٥، والذى جاء بعد مرور خمسة أعوام على انتفاضة الأقصى التى أعقبت فشل التوصل إلى اتفاق بخصوص صيغة الحل الدائم للصراع الإسرائيلي- الفلسطينى فى مفاوضات كامب ديفيد الثانية فى عام ٢٠٠٠، والتى حددتها اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣. وعمقت التطورات على الساحة السياسية الإسرائيلية منذ عام ٢٠٠٠، انعدام ثقة الطرف الفلسطينى والأطراف العربية بشكل عام فى إمكانية إحلال السلام فى المنطقة، وعززت الاعتقاد بأن المطروح، لاسيما بعد الاتفاقيات الإبراهيمية والحديث عما يعرف بصفقة القرن، أن ثمة حل يجرى الترتيب له على يقوم على فكرة تصفية القضية الفلسطينية والوجود الفلسطيني. وأدى حديث نتنياهو عن أن الهدف الذى يسعى لتحقيقه هو إقامة «إسرائيل الكبرى» إلى توسيع أزمة الثقة فى النوايا الإسرائيلية لتشمل أطرافًا عربية أخرى. مثل هذه السياسات والتصريحات ولدت حالة من اليأس لدى الفلسطينيين امتدت إلى الشعوب العربية، ومن شأن هذه الحالة أن تؤجج مشاعر الغضب ليس بسبب السياسات العدوانية الإسرائيلية، وإنما إزاء السياسات العربية التى تظهر مستوى من العجز الشديد وامتهان الكرامة، ودفع العديد من الأجيال الشابة إلى فتح نقاش جدى حول الأولويات على النحو الذى كشفته مظاهرات المغرب التى تتطلب تحليلًا دقيقًا لدوافعها وللشعارات التى ترفعها. هذه المظاهرات قد تكون مؤشرًا لما هو قادم فى بلدان أخرى فى المنطقة، أو تدفع كثير من الحكومات إلى مراجعة سياساتها تجاه الفلسطينيين وإسرائيل.

إن أى جهود لإقامة حوار حول التعايش ستفشل ما لم يتم التعامل بحزم مع التطرف الإسرائيلى الذى انتقل من مرحلة الآراء الخاصة لجماعات هامشية وخارجة على القانون، مثل حركة كاخ التى أسسها الحاخام المتطرف المولود فى نيويورك مائير كاهانا الذى اغتاله مهاجر مصرى هناك فى عام ١٩٩٠، هذه الحركة هى المنظمة الأم التى انبثق منها العديد من الأحزاب اليمينية المتطرفة التى أصبحت شريكًا مؤثرا فى الحكومات الإسرائيلية خلال العقدين الماضيين. لكن ثمة بارقة أمل تتمثل فى تزايد الأصوات اليهودية داخل إسرائيل أو خارجها التى تنبه إلى خطورة هذه الجماعات المتطرفة ليس فقط على مستقبل إسرائيل وإنما على مستقبل اليهود فى العالم. من هذه الأصوات الحاخام يسرائيل دوفيد وايس، وهو ناشط مناهض للصهيونية والمقيم فى نيويورك، وأحد أبرز المنتقدين لإسرائيل وقادتها ويُشير إلى أن الجرائم التى يرتكبونها فى غزة، أدت إلى حالة خطيرة يواجه فيها اليهود العاديون فى أنحاء العالم عداءً بسببه، ويرى أن الحركة الصهيونية تتعارض مع مبادئ اليهودية، وتغذى معاداة السامية وتُعرّض المجتمعات اليهودية فى أنحاء العالم للخطر، نتيجة للصورة النمطية التى تضفيها هذه الممارسات التى ترتكبها إسرائيل باسم اليهود. هناك دراسات عديدة ليهود كشفت المدى الذى يمكن أن يصل إليه التيار اليمينى التصحيحى أو الإحيائى فى الحركة الصهيونية بداية من الصفقات السرية التى عقودها مع النازى فى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا فى الثلاثينات، لدفع اليهود فى بلدان أوروبا للهجرة إلى فلسطين، والتى نشر وثائقها لينى برينر، وهو كاتب يهودى يقيم أيضا فى نيويورك فى كتاب بعنوان «الصهيونية فى زمن الدكتاتورية»، الذى صدر فى عام ١٩٨٣، وترجمه الدكتور محجوب عمر للقراء العرب فى طبعة صدرت فى عام ١٩٨٥.

وواجه هذا الكتاب حملة شعواء من وسائل الإعلام الأمريكية والعديد من الدوائر المرتبطة بالمؤسسة الأمريكية وبالصهيونية مما دفع المؤلف إلى نشر دراسة أخرى عن اليهود فى أمريكا، نشرها فى كتاب صدر عام ١٩٨٦، قدم فيه توثيقًا للحملة التى تعرض بسبب الكتاب والتى كانت دافعًا له لدراسة الوضع الراهن للجماعات اليهودية فى الولايات المتحدة التى وصفها بأنها أرض الميعاد الحقيقية بالنسبة للغالبية الساحقة لليهود فى العالم. والحرب التى تشنها الصهيونية على هذه الأصوات اليهودية المعادية للصهيونية شعواء، ويلجأ فيها الصهاينة وأنصارهم إلى العنف والترويع والقمع على النحو الذى أوضحه الحاخام دوفيد وايس الذى اتهم الصهاينة بالتحريض المباشر على الكراهية ضد اليهود لتحقيق أجنداتهم الخاصة، مشددًا على أن الصهيونية حركة قومية علمانية تُشوّه الهوية اليهودية وتمثل تفسيرًا خاطئًا لماهية اليهودية من جميع النواحي. لكن هناك أصوات يهودية أخرى علمانية، من اليمين واليسار، تعارض الصهيونية وهم مكون رئيسى فى حركة التضامن العالمية مع الفلسطينيين والمناهضة لإسرائيل وسياساتها، وينضم عشرات الآلاف منهم للمظاهرات فى أمريكا وفى أوروبا. وهذه الحركات اليهودية المعارضة للصهيونية ولإسرائيل وسياساتها موجودة منذ بداية الحركة الصهيونية، لكن صوتها لم يكن مسموعًا بسبب سياسات الحكومات الأوروبية التى أوجدت ما يعرف بـ «المسألة اليهودية» فى الفترة التى تزامنت مع بروز «المسألة الشرقية». وعلا صوت هذه الجماعات وأصبح مسموعًا منذ الانتفاضة الفلسطينية فى عام ١٩٨٧، وحطمت الصورة النمطية التى رسمتها الدعاية الصهيونية والغربية للشخصية اليهودية.

لكن هذه التحولات لم تحظ بالاهتمام الكافى من الباحثين والدارسين والكتاب العرب، الذى يميل خطابهم إلى التركيز على ما يعتبرونه ثوابت حاكمة للموقف من إسرائيل ومن اليهود المقيمين فيها، رغم تأكيدهم المتكرر عن تمييزهم بين اليهود والصهيونية. قد تشجع هذه الأصوات اليهودية الحكومات الغربية على الانتقال من انتقاد السياسات الإسرائيلية دون خوف من اتهامهم بمعاداة السامية، إلى اتخاذ مواقف عملية ومؤثرة على نحو يساعد فى تقييد وكبح الروح العدوانية المسلحة للدولة وللجماعات اليهودية المتطرفة والمسلحة فى الداخل والتى تستهدف الفلسطينيين فى إسرائيل وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة على حد سواء. ثمة مؤشرات فى خطة ترامب تشير إلى تأثير مثل هذا الوعى الجديد الناشئ على المستوى الرسمى العام فى البلدان الغربية، والسؤال المطروح الآن كيف يمكن الإمساك بهذه الفرصة والبناء عليها من أجل تغيير الوضع الراهن وتعديل الميزان المختل، والنجاح فى هذا التحرك مرهون بالتزامنا بالمبادئ الإنسانية العامة ونبذ الكراهية.

أصوات يهودية قد تشجع الحكومات الغربية على اتخاذ مواقف لتقييد وكبح الروح العدوانية المسلحة لدولة الاحتلال وللجماعات اليهودية المتطرفة والمسلحة

بقلم: أشرف راضي